

المحنة

* السنة الثالثة *

* الجزء الثاني *

مجلة علمية تهذيبية تاريخية صحية

* الاسكندرية — سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠١ — جماد اول ١٣١٩ *



الفيلسوف ارنست رنان

مشاهير المنقذين والمناشرين

الفيلسوف ارنت رنان

✽ المؤرخ المستشرق الشهير ✽

مؤلف كتاب تاريخ المسح

✽ خلاصة هذا الكتاب ✽

طريقان مغالغان . الاضطهاد الديني في اوربا وروسيا . ترجمة زعيم من زعماء الافكار المقاومة لرجال الدين . تلخيص كتاب تاريخ المسح الذي نال مؤلفه من الاضطهاد بسببه اكثر مما نال الفيلسوف تولستوي . ردود المؤلف على معارضيه ومضطهديه
نبوته الدينية

في العالم الآن حركتان شديدتان الاولى اسلامية والثانية مسيحية . اما الحركة الاسلامية فهي قيام المسلمين في جميع اقطار الارض ودعوتهم انفسهم الى اصلاح شؤونهم بواسطة الدين . واما الحركة المسيحية فهي قيام فئات من المسيحيين في اكثر اقطار الارض ودعوتهم انفسهم الى تقييد سلطة رجال الدين وحصر وظيفتهم في اماكن العبادة . فكان كل واحد من الفريقين يطالب صلاح الحال من الطريق التي ينكرها صاحبه

واذا كانت الطريقة الاسلامية لم تُصب اصحابها بضرر عاجل فان الطريقة المسيحية قد اصاب اصحابها بضرر عظيم . فان العامة في البرتغال واسبانيا وبلجيكا وفرنسا وروسيا قد اكثروا من اضطهاد رجال الدين والسطو عليهم واهانتهم في هذين العالمين وهو مما لا يليق بالامم المتقدمة التي تحترم الحرية الشخصية . ولقد كانت فرنسا في جملة من امتازوا في هذه الحيلة لانها وطن الكتاب والفلاسفة الذين ناصبوا رجال الدين ووقفهم عند حدودهم كغولبير ورسو وديدرو ورنان . وكان اشد وطأة الاول والاخير . فاذا

فصلنا ترجمة احدهما رنان وذكرنا لمّا من فلسفته وآرائه كنا كمن يبحث في موضوع من مواضع الحوادث المحلية في الكرة الارضية

* تاريخ حياته * ولد « ارست رنان » في « نرجيه » من اعمال فرنسا في ٢٧ فبراير من عام ١٨٢٦ . وكان ابوه رباناً لاحدى السفن التجارية وهو من مقاطعة بريتونيا . واما امه فانها كانت غاسكونية ولذلك كثيراً ما قال رنان عن نفسه ان هذا المزج بين البريتونية والغاسكونية انشأ فيه من جهة الاول قوة النصور والتامل ومن جهة الثاني قوة الصبر على الحياة والارتياح الى المعيشة كيفما كانت

وقد توفي ابو رنان وعمره خمس سنوات فرثته امه بمساعدة بعض الكهنة وهي تنوي ادخاله في سلك الاكليروس . فلتقى رنان دروسه الابتدائية في دير اكليريكي في بلده وقد مال في صغره الى الدخول في هذا السلك رغبة في الانقطاع الى العلم والفضيلة . وبقي على هذه الرغبة حتى بلغ السنة الخامسة عشرة من العمر فانقل الى دير سان نيقولا في شاردونه لانتمام دروسه فتغيرت افكاره هناك لما كان يحده حوله احياناً من قلة الاحترام للمسائل الدينية كما قال المسيو برتواو الذي تعتمد عليه في هذه الفذلكة . ومنذ هذا الحين تزعزع ايمانه . ثم انتقل في سنة ١٨٤٢ الى دير ايسي ليتلقن الفلسفة فطالع هناك مؤلفات الفيلسوفين الالمانيين هجل وهردر فاجهزت هذه المطالعة على ايمانه وصار يرى حياة العالم عبارة عن نمو باطني للكون كما ان نمو الشجرة وحياتها انما هو عبارة عن نموها الباطني . وفي سنة ١٨٤٤ اخذ يدرس اللغات الشرقية فما تعمق فيها حتى صار يعتقد انه لا يمكن ان تكون التوراة كتاباً منزلاً وذلك لما رآه فيها من الاغلاط التاريخية . فعدل منذ هذا الحين عن الانخراط في السلك الاكليريكي واقام حينئذ في نفسه نزاع شديد بين النذر الذي نذره من الانخراط في هذا السلك وبين ما حسبه حقيقة . وكانت له اخت تدعى هنرييت رنان وكانت سامية المدارك قوية العقل وهي اكبر سناً منه باثنتي عشرة سنة فاخذت تحمّد ثورة فكر اخيها وتهوّن عليه قطع ما كان بينه وبين رجال الاكليروس من الصلات . وزار رنان في ذات يوم صديقه الفيلسوف جول سيمون وهو لابس الالباس الاكليريكي واطلمه على ما قام في نفسه من ترك الاعتقاد القديم والمعدل عن الانخراط في سلك رجال الدين . قال جول سيمون في بعض كتبه . وقد بذلت جهدي في اثناء رنان عن عزمه فكان يجيبني انه لا يستطيع ذلك لان الطائر الذي كان في نفسه

قد طار منها . وهكذا نبذ رنان نذره وخلع الثوب الاكليريكي ولكن رنان لم يخلع الثوب الاكليريكي حتى لبس ثوب الضجر من الحياة والياس من الوجود لانه لم يكن يجد لها غرضاً . ولا غربة في ذلك فان الحالة التي بلغتها نفسه قد البسته هذا الثوب المملو، حسكاً وشوكاً . فمن حسن حظّه تعرف في المدرسة التي كان يدرس فيها بشاب يدعى برتلو وهو المسيو برتلو الكباوي الفرنسي المشهور الذي جعل في هذا العام عضواً للاكاديمية الفرنسية وكان من قبل وزيراً للشؤون الخارجية الفرنسية . فعقد رنان مع هذا الشاب صداقة قوية العرى . وكان برتلو منصرفاً الى العلم المادي او الوضعي فاثرت معاشرته وافكاره في رنان تأثيراً شديداً فصار رنان يعتقد اعتقاده في نفع العلم وقدرته على اصلاح الهيئة الاجتماعية وتحسين احوال البشر . فصرف افكاره مثله الى العلم قياماً بهذه الخدمة فكان برتلوبت فيه روح دين جديد . فاخذ رنان منذ ذلك الحين بالاشتغال بالعلم وصار حينئذ يجد للحياة غرضاً ومقصداً

ففي سنة ١٨٤٨ قدم لجمعية الفنون كتابه المعنون « تاريخ اللغات السامية » فطارت به شهرة رنان وُعدّ مستشرقاً عظيماً . ثم كتب في سنة ١٨٤٩ كتابه « مستقبل العلم » غير ان هذا الكتاب لم يُنشر الا في سنة ١٨٩٠ . وكان من اقواله في هذين الكتابين ان العالم يخون نفسه من نفسه وهو سائر الى الكمال سيرة تدريجياً . وما هو ذلك الكمال ؟ هو قوة الفكر والفضيلة وطلب الحقيقة والخير لذاتها . فعلى العلماء والفلاسفة الذين هم نخبة الانسانية ان يبذلوا قصارى جهدهم في تعليم الحقيقة للناس ورنع باقي الانسانية اليهم فان هذا الامر مطلوب منهم كما هو مطلوب من رجال الدين . ومن يقوم به منهم فان عمله يكون عبارة عن صلاة او افضل منها

وفي سنة ١٨٤٩ عُبد الى رنان مهمة علمية في ايطاليا فسار اليها وشاهد عظمى فنونها الجميلة فتشربت نفسه حب الجمال . وفي عام ١٨٥٣ نشر كتابه « ابن رشد ومبادئه » وموضوعه اثبات ان الاضطهاد الديني هو الذي اوقف في الاندلس والعالم الاسلامي مسير التقدم ومنع الارتقاء العلمي والفلسفي الذي كان قريب الحدوث فيها . وكان غرضه من هذا ان يُظهر للحكومات الاوربية والسلطات الدينية ما ينشأ عن اضطهاد الدين للعلم ليكون عبرة لها فلا تضطهد العلم في اوربا فيحل بها ما حلّ بين نقد موعها

واقترن رنان في عام ١٨٥٦ بدمه وازل شيفر حفيذة المصور آري شيفر فانتبهت فيه عواطف الحب وانعكست الى نفسه صورة الجمال الانثوي الذي اتخذ رفيقاً له فاحياها

وملاها تصورات وتاملات عذبة . فصار فلم رنان بعد هذا الزواج كأنه قد غُطَّ في كاس
عسل . وقد حدث مثل ذلك لجان جاك روسو بل اشد منه . فانه في بعض ادوار عمره
وهو الدور الذي تشتد فيه زفرقة الطيور وتلمع جناح الفراش في الحقول — اي دور الربيع
الانساني — صار يحس بنار في داخله وبرق في عينيه وجريان في قلبه فاذا كتب خط
سحرًا وابرز تبرًا . وقد كتب في تلك المدة القريبية كتابه « هيلويز الجديدة » وكله
رسائل حبية فلسفية فكان ابغ كتيبه . وبعد ذلك خمدت تلك الثورة وانطفأت تلك النار
فذهبت بذهاها تلك البلاغة التي كانت تنصعد عنها
اما رنان فلم تخمد ناره قبل ابرازه الكتاب الذي طير صيته في جميع اقطار الارض
وجعله اعظم علماء عصره شهرة

وهذا الكتاب هو « تاريخ اصل الديانة المسيحية » وهو خمسة اقسام (١) تاريخ حياة
المسيح (٢) تاريخ اعمال الرسل (٣) تاريخ حياة القديس بولس (٤) المسيح الدجال
وكتاب آخر . وكل واحد من هذه الاقسام كتاب ضخيم وامامنا الآن القسم الاول منه
وهو تاريخ حياة المسيح وعدد صفحاته ٥٤٩ صفحة كبيرة ما عدا مقدماته الطويلة
ولا ريب في ان هذا القسم اهم اقسام الكتاب كله . وقد كتيبه رنان في سياحة له في
فلسطين وسوريا ولبنان بين سنة ١٨٦٠ و١٨٦١ وكان مرسلاً اليها للتنقيب عن آثار
الفينيقيين وله فيها كتاب عنوانه سياحة في فينيقية . وبعد عودته من فينيقية جعل استاذًا
للغات العبرانية والكلدانية والسريانية في مدرسة كوليج دي فرانس . غير انه بينما كان
يلقي فيها اول دروسه لقب السيد المسيح في كلامه عنه « بالانسان الذي لا مثيل له »
فقامت في الجلسة قيامة انصار الاكايروس وخصومهم بعض معه وبعض عليه فقررت
الحكومة الامبراطورية الغاء هذا الدرس فترك رنان تلك المدرسة . وقد تلا هذا الحادث
ظهور كتاب تاريخ المسيح في عالم الادب (سنة ١٨٦٣) فانفجرت على مؤلفه ينابيع حارة
وينابيع باردة

اما الينابيع الحارة فانها انفجرت من نفوس جميع رجال الدين ولا سيما الغلاة منهم
وجميع الذين يقدون بهم او يعيشون من ورائهم . فسأله الناس بالسنة حداد وانهاوا
عليه في الجرائد والمجلات بالشتم والسب وحرمة رجال الدين من الكنيسة ولعنوا كل من
يقرأ كتيبه . وقد اتهمه بعض الغلاة بانه ما كتب ذلك الكتاب الا في مقابلة مليوني
فرنك قبضها من بيت روتشيلد الاسرائيلي . ولكن اصدقاء رنان الذين يعرفون محبه المجدد

لتقرير ما يحسبه حقيقة ينفون عنه هذه التهمة السوداء . وسنشير في ما يلي الى الردود التي كان رنان يرد بها على الطاعنين عليه

واما الينايع الباردة فانها انفجرت من نفوس الامرائيليين في جميع اقطار الارض لان ذلك الكتاب يعزو تمدن العالم اليهم ويقول بخروج المسيحية منهم وان كان ثبت ان آدابها العليا لم تشتق من آدابهم . وقد جاراهم في الارتياح الى موضوع هذا الكتاب كل العلماء الماديين في اوربا وكل الكتاب الذين لا يدينون بدين . بل ان بعضاً منهم لام المؤلف وعنفه لانه تساهل في بعض الامور

ثم حدثت الحرب بين فرنسا والمانيا في سنة ١٨٧٠ فكان رنان من كارهيها وقد كتب يومئذ في « مجلة العالمين الفرنسية » مقالة لقب فيها فرنسا والمانيا اختين في المدينة وقال ان من الجناية على التمدن ان نتجاربا . وبعد ما شاهد رنان في هذه الحرب من آثار الهمجية البشرية في ساحة القتال ومن تمرد رجال « الكومون » في باريز وافضاء هذا التمرد الى حرب اهلية بين الفرنسيين جرت فيها الدماء انهاراً ترعزت ثقته بسير العالم الى محجة الكمال وكره الديموقراطية وشؤونها لانها ادت بوطنها الى ذلك الوبال . وصار يرى من الواجب على كل امة ان يكون فيها نخبة من رجال الفضل والعقل لادارة شؤونها بقسط واعتدال فلا يكون للفساد والرشوة من سبيل الى نفوسهم . واخذ يتساءل كثيراً هل ان العقل والعدل يسودان في هذه الارض في مستقبل الزمان ؟ ام يتوصل العلم فقط الى حالة يصبح فيها سواد الناس عاجزين عن الاضرار بكبارهم لما يضعه لهم هولاء الكبار من الشكيمة بواسطة معارفهم العلمية . وقد نشر رنان كتاباً في هذا الموضوع عنوانه « مباحثات فلسفية »

ولكن لما قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين اعادته الى كرسي التعليم في كوليج دي فرانس وجعلته مديراً لهذه المدرسة . وفي سنة ١٨٧٩ عين عضواً للاكاديمية الفرنسية . فعاد رنان ورضي عن الديموقراطية بعض الرضى . وفي سنة ١٨٩٢ اتم نشر كتابه « تاريخ شعب اسرائيل » وهو خمسة اجزاء وصل بها تاريخ المسيح بتاريخ نشأة بني اسرائيل فكان هذان الكتابان تاريخاً شاملاً للعواث الامرائيلية من اولها الى ما بعد انتشار الديانة المسيحية

وقد عمر رنان نحو سبعين عاماً . وكان في آخر ايامه رزينا هادئاً مع شيء من التهمك وعدم المبالاة بآراء الناس . وبقي على هذا الهدوء والرزانة مع ما انتابه من المرض

والالم في آخر حياته . وقد قال وهو على فراش الموت « انني اموت سعيداً لانني اتهمت عملي . وما الموت الا ناموس طبيعي فلنخضع لناموس الطبيعة » وكانت وفاته في ٢ اكتوبر من عام ١٨٩٢ وبعد وفاته ابنته جرائد الارض تأييداً متبايناً . فبعضها شيعه بالسب والشتم القبيح وبعضها رأى ان يُترك الحكم على اعماله الى الاجيال القادمة . ولا يزال اسم رنان « برن » في فرنسا الى هذه الايام وقد ساء اصدقاؤه وانصاره « رنان العظيم » . وكذلك ساء المسيو والدكتور وسور رئيس الوزارة الفرنسية غير مرة في بعض خطبه . اما خصومه فلا يزالون باعنونه ومما يروى عن رنان وقد رواه نفسه في بعض مؤلفاته ان احد الرهبان كان يرسل اليه في ليلة احدى الاعياد المسيحية الكبرى من كل عام ورقة صغيرة عليها هذه الكلمات « جهنم وجوده » وقد قال رنان بعد ايراده هذا الخبر لقد ظن صديقي الراهب انه يؤلني بهذا القول وما عرف انني افضل جهنم على « العدم »

ولما زار رنان ايطاليا خرج الناس لاستقباله في زوارقهم فاحاطوا بزورقه واخذوا يصيحون « ليحي العلم ليحي العلم » يريدون بذلك نكابة رجال الدين في الفاتيكان . وكان رنان ساعته يكتب في مذكرته . فكتب فيها هذه العبارة « لا ريب ان الكشكة تقوضت اركانها في ايطاليا » قالت جريدة الطان بعد نشرها هذا الخبر في الشهر الماضي « لقد اخطأ رنان في هذه النبوة كما اخطأ في غيرها » ولكنها عادت فعقت على ذلك بقولها « ولكن قولنا هذا لا يحطم من شان رنان . فان رنان يبق رنان مهما قيل فيه » ومن اقوال رنان في العسكرية « انني لو اضطرت الى الانتظام في سلك الجندي ولم اقدر على التخلص من ذلك لقتلت نفسي » وقد صدر في فرنسا في الشهر الماضي كتاب عنوانه « سنة في التكنة العسكرية » وموضوعه الطعن على المعيشة الجندي وعلى الجندي نفسها وقد صدره مؤلفه بالعبارة التي تقدم ذكرها تعريزاً لكتابه ولرنان مؤلفات كثيرة غير ما تقدم منها كتاب اصل اللغة . وسفرايوب . ورسائل رنان وبرتلو . وفصول مختلفة وغيرها

* خلاصة كتاب تاريخ المسيح *

(المؤلف اهدى كتابه الى اخت والجامعة تهدي الى اخ)

اما كتاب هذا الفيلسوف « تاريخ حياة المسيح » فاننا لم نقدم على تلخيصه في هذه المقالة (او بالاحرى الاشارة الى بعض اغراض من اهم اغراضه العلمية) الا وفي نيتنا تحاشي ذكر كل ما لا يجب ذكره منه احتراماً لاراء الناس ومعنفاتهم ولا سيما بسطاءهم . وللهي حجب

الينا هذا التلخيص ما عثرنا عليه في هذا الكتاب من الشؤون التاريخية الجلية التي قطع رنان عمره وهو يبحث عنها . فانه وصف فيه حالة اليهود الاجتماعية والسياسية يوم ظهور السيد المسيح وما تقدم هذا الظهور وتلاه من الحوادث التاريخية المتعلقة بتاريخهم وتاريخ الرومانيين اصحاب السلطان عليهم في ذلك الزمان ووصف الامكنة التي عاش فيها السيد وعلم فيها بعد ان زارها المؤلف بنفسه وكتب هذا الكتاب تحت سمائها . وبعبارة واحدة نقول ان غرضنا تاريخ الوسط الذي عاش فيه السيد . فغرضنا اذاً علمي تاريخي محض واما المسألة الدينية الكبرى فلا دخل لها في هذه المقالة

المقدمة الى اخيه

وقد اهدى المؤلف هذا الكتاب الى اخيه « المدموازل هنرييت » التي رافقته في سياحته في سوريا وفلسطين وتوفيت بالحمى في جبيل من اعمال لبنان . وقد صدر رهنديته بالخطاب المؤثر التالي

« الى روح اختي هنرييت الطاهرة »

« التي توفيت في جبيل في ٢٤ سبتمبر من عام ١٨٦١ »

« اتذكركن وانت الآن مستريحة في احضان الله تلك الايام الطويلة ايام « غزير » التي كنت فيها واهاك منفردين نكتب صفحات هذا الكتاب الذي كانت توحيه الينا الاماكن التي زرناها معاً . لقد كنت يومئذ جالسة بجانب ساكنة تنتظرين الصفحات التي كنت اكتبها وكلما اتممت صفحة تناولتها وقراها ثم نسختها بعد قراءتها . هكذا كنا نقضي النهار وتحت اقدامنا البحر والقرى والجبال المجاورة . اما في الليل فانك كنت تلقي عليّ سوالات دقيقة لطيفة كان يظهر فيها شيء من ارتياك فكانت هذه الاسئلة تبعثنا الى الموضوع السامي الذي كان شغلنا الشاغل . وقد قلت لي يوماً انك تحبين هذا الكتاب لاربن الاول لانه كتب في صحتك والثاني لانه كتب على ذوقك . وكنت معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الجاهل السريع الحكم الضيق القلب فان كل رجل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً حقيقياً لا بد ان تقضي به قراءته الى الرضى عنه والمرور به . وبينما كنا منصرفين الى هذه التأملات الحلوة جاء الموت ولطمنا كلينا بمنحه فرفدنا رفاد الحمى في وقت واحد . ثم انتهت فوجدت نفسي وحدي . فانت الآن ترقدين بسلام في ارض ادونيس قرب بيبيلوس المقدسة (جبيل) في جوار المياه المباركة التي كانت تفد

اليها نساء الاديان السرية الماضية ليجزن دموعهن بائنها . فيا ابنتها الروح الصالحة . اوحى اليّ انا الذي كنتُ حبيباً اليك في حياتك تلك الحقائق التي هي اقوى من الموت والتي تُعَلِّمُ الانسان ان لا يحشاه بل التي تعلمه ان يتعناه »

هذا نص هدية المؤلف الى اخته . واذا كان كل كاتب يحق له ان يستفيد بالاحياء الذين له في راحة الابدية فما اخرى الجامعة ان تستفيد ذلك الاستيجاد ايضاً

وقد نسب رنان غير مرة نجاحه الى اخته فكأنه لا ينبغي رجل عظيم حتى يكون بازائه امرأة تدربه وترشده . وقد ذكرنا آنفاً ان اخت رنان هي التي شددت عزائم حين عزم على التخلص من السيادة الاكليريكية وذكر المؤلف في كتاب الهدية الذي تقدم ان اخته كانت مرتاحة الى كتاب تاريخ المسيح الذي كان يكتبه فهذا يدل على ان الميل عن التقاليد الدينية امر وراثي في اسرة رنان لانه فلما سمع مثل ذلك عن النساء لشدة تمسكهن بهذه التقاليد

وقد كتب رنان بعد وفاة اخته كراماً عنوانه « الى اخي هنرييت » لم يُطبع منه في بدء الامر سوى مائة نسخة خصوصية . وهذا الكراس هو ابلاغ ما كتبه رنان على الاطلاق لان الحب الاخوي اجرى من اعماق نفسه اشد ما كان فيها من البلاغة والعذوبة . وقد قال : « وخرج حياته ان اخته هذه هي التي اصلحت قلمه وعلمته ان ينحو منحي البسيط الطبيعي في كتاباته . ولم يكن كذلك قبل ذلك »

المقدمة الاولى

وتلي هذه الهدية المقدمة الاولى للكتاب وقد وضعها المؤلف للطبعة الثالثة عشرة من كتابه . واما النسخة التي امامنا الآن فانها من الطبعة الخامسة والعشرين . فيكون كتابه قد اعيد طبعه ٢٥ مرة حتى هذا العام . وقد ردّ رنان في هذه المقدمة ردّاً مختصراً على معارضيهِ . وهم فئتان . الفئة الاولى منكرو الوحي الذين انكروا عليه الاعتماد على الكتب المقدسة في كتابة تاريخ المسيح لانهم لا يعتقدون صحتها . والفئة الثانية المعتقدون بهذه الكتب بلا بحث ولا جدال وهم رجال الدين ورعيّتهم من المؤمنين . وقد قال في ختام هذه المقدمة ما ملخصه

« اني مسيحي ولكنني لست كباقي المسيحيين . فاني اعترف بوجود ان لا اتكلم عن كنيسةي الا برفق ولكن هل ذلك يقضي عليّ بان اغمض عيني عن الحقيقة . وهل ادين

حكومة من الحكومات اذا قلت انها لم تحسن تدبير الاميال المختلفة التي في نفوس الناس او
 امين ديناً من الاديان اذا قلت انه لم يسلم من الاعتراضات الهائلة التي يقيمها العلم في كل
 يوم في وجه التعاليم التي من فوق الطبيعة . ان الديانات تسقط الواحدة بعد الاخرى لانها
 تخضع للقلب لا للعقل ولانه ليس في العالم قوة قادرة على خنق ذلك العقل
 ومع ذلك فاذا تمكن العقل من خنق الديانة فالويل له في ذلك اليوم . صدقوني ان
 كرتنا الارضية تعمل في عمل عظيم سيؤدي الى نتيجة عظيمة . فلا تقولوا ان هذا نافع
 وهذا غير نافع بل دعوها تعمل فان الطبيعة التي خصت الحيوان بغريزة لا تخطئ لم تضع
 في الانسان شيئاً يخدع . ولا تقولوا ان الاديان تخطئ كلما ارادت اقامة البرهان على
 وجود «اللانهاية» وتحددها والزمع بانها تمثلها فانها اذا كانت تخطئ في ذلك فانها تصيب
 جداً كلما اكدت وجودها . واذا مزجت بذلك كثيراً من الاغلاط فليس ذلك بالشيء
 المذكور بازاء الحقائق التي تنادي بها . وان ابسط الناس المؤمنين في قلوبهم اكثر
 معرفة بحقيقة الاشياء من ذلك المادي الذي يفسر كل شيء في الحياة بالصدفة وفناء المادة»
 وغني عن البيان ان المؤلف لم يوجه القول الاخير الا الى الماديين الذين
 ينكرون الاديان

المقدمة الثانية

اما المقدمة الثانية فقد تكلم فيها عن المصادر التي اسنتق منها تاريخ المسيح . وهي خمسة
 (١) الاناجيل الاربعة واعمال الرسل والرسائل (٢) الكتب السماة «ابوكريف»
 من العهد القديم وهي الكتب التي لا تعتقد الكنيسة صحتها (٣) مؤلفات فيلون الفيلسوف
 الاسكندري الذي عاصر المسيح (٤) مؤلفات المؤرخ يوسيفوس المشهور الذي عاصر
 المسيح ايضاً (٥) التلمود وهو كتاب اليهود

قال المؤلف . اما مؤلفات الفيلسوف فيلون فانها خير مرشد الى الافكار الدينية التي
 كانت تحتلج في نفس الامة اليهودية في ذلك الزمان . ولكن من سوء الحظ ان فيلون
 كان يعيش في اقليم غير الاقليم الذي ظهر فيه المسيح وكان عمر فيلون اثنتين وستين
 سنة لما بلغ السيد اشدّه وظهر روحه . وكان فيلون شديد الكراهة ايضاً لتعاليم الكتبة
 والفريسيين وقد عاش بعد السيد عشر سنوات على الاقل . فبالها من خسارة ان لا يكون
 قد ذهب الى الجليل ونظر السيد فانه لو فعل لكتب عنه ما يكفي ويشفي
 واما المؤرخ يوسينوس فانه كان يكتب لليونانيين والرومانيين الذين كانوا اصحاب

السلطة على فلسطين ولذلك لم يكتب باخلاص كما كان يكتب فيلون لثلاثي التهمة على اليهود ابناء وطنه . وقد كتب ما كتبه عن المسيح ويوحنا المعمدان ويهوذا الغولوثيني باختصار وغموض فلم يفهم اليونانيون والرومانيون حقيقة الحوادث التي كانت يشرب اليها . قال المؤلف . اما الفقرة التي جاءت في كتابه عن المسيح فانها حقيقة واذا كان يوسيفوس قد كتب عن المسيح فانه لا يكتب الا ما كتب لان ذلك الاسلوب اسلوبه . ولكن القارئ يشتم ان بدأ مسيحية قد اصلحت تلك الفقرة وحذفت منها وزادت عليها شيئاً ولا سيما هذه الكلمة التي جاءت فيها وهي « اذا كان يجوز ان يسمى انساناً » والتي لولاها لكان كلام يوسيفوس شهادة على رجال الدين لا لم . وما يرجح هذا الظن ان المسيحيين في القرون الاولى اتخذوا كتب يوسيفوس تاريخاً رسمياً لحوادث بلادهم فغير غريب ان يكونوا قد نشروا في القرن الثاني للميلاد طبعة منقحة من جميع كتبه . ومهما يكن من الامر فان اهمية هذه الكتب في كتابة هذا التاريخ لا تخفى على احد لان هذا المؤرخ اليهودي يربنا فيها بكثرة تفاصيله هيرودس وهيروديا وانتيباس وفيليبوس وحنانيا وقيافا وبيلاتس كأنهم اشخاص احياء بيننا

ثم تكلم المؤلف عن اسفار الابو كريف وعن الاناجيل والتلمود كما تكلم عن المؤرخين اليهوديين . فقال ان المؤرخ باياس لم يسمع بوجود انجيل يوحنا ولكنه يقول ان الرسول بطرس كتب انجيلاً فاعمله هو . اما متى فلا يجاريه احد في نقل خطب السيد ودقة حفظها كما ان مرقس لا يجاريه احد في دقة نقل الحوادث وتفصيلها بتأكيد وثبات . ثم ردّ المؤلف على الذين لا يعتمدون على الكتب المقدسة فقال ان المسيو سبرنجر كتب تاريخ حياة صاحب الشريعة الاسلامية واعتمد فيها على الحديث النبوي فلماذا لم يعارضه المعارضون فان هذا كذلك . واذا قام غداً رجل لكتابة تاريخ الفلسفة اليهودية في القرون التي تقدمت ظهور السيد وتلته ببضعة قرون فهل يعترضون على الكتاب اذا نسب الى الفلاسفة اليهود همل وشاماي وغامليل الاقوال التي ينسبها اليهم كتاب المشنا والجماره مع ان هذين الكتابين لم يكتبتا الا بعد موت اولئك الفلاسفة ببضعة قرون

ثم ردّ على الذين يقولون بالعجائب فانكرها وقال ان الذي يعتقد بها ويروم جعل هذا الاعتقاد قاعدة لمباحثتي ومناظرتي فلا يباحثني ولا يقرأ كتيبي لاننا لا ننفي ابدأ . ثم وصل الى المصدر السادس الذي اعتمد عليه في كتابة كتابه فقال هذا القول الذي يعدّ تاريخاً لذلك الكتاب

تاريخ الكتاب

تلك هي القواعد التي بنيت عليها كتابي . ولكني اضفت الى المصادر التي تقدم ذكرها مصدراً جديداً وهو زيارة الاماكن التي حدثت تلك الحوادث فيها فكانت لي نوراً مرشداً . فان البعثة العلمية التي عهدت الي ادارتها بين عام ١٨٦٠ و ١٨٦١ للتفتيش عن آثار فينيقية وارتباد بلادها اوجبت اقامتي مدة على حدود بلاد الجليل والسياحة فيها مراراً . فظنت في هذا الاقليم الانجيلي من كل الجهات وزرت اورشليم وحبرون والسامرة وكل مكان له علاقة بتاريخ المسيح . وقد يجمل للبعيد عن تلك الاماكن ان الحوادث المسيحية الاولى حدثت في فضاء خيالي لا حقيقة له ولكن لما زرت تلك الاماكن تجسست فيها تلك الحوادث امامي تجسماً ادهشي . فقد كان الائتلاف تاماً بين النصوص الانجيلية والاماكن المذكورة . واذ نظرت تلك المناظر الطبيعية الجميلة وقابلت بينها وبين روح الكمال الموصوفة في الانجيل شعرت بانطباق هذه على تلك وحيثئذ احسست كأنّ وجباً اوحى الي . فتاملت فوجدت امامي انجيلاً خامساً مفتوحاً وهو انجيل الطبيعة . فصرت اقرأ فيه ولما كنت انتقل منه الى انجيلي متى ومرقس كنت ارى بين السطور صورة شخص عظيم حي . فلما جاء الصيف صعدت الى غزيريف لبنان لاستريح قليلاً وهناك كتبت بسرعة وصف تلك الصورة العظيمة التي ظهرت لي فكان منها هذا التاريخ . ثم نزلت بي مصيبة اليمة اضطرتني الى تعجيل سفري (وفاة اخته) فسافرت ولم يكن باقياً عليّ من هذا الكتاب غير بضع صفحات . فانا اذا قد كتبت هذا التاريخ في مكان قريب من الامكنة التي عاش يسوع فيها . ولما عدت الى بلادي اخذت اصلح واكمل تلك الصفحات التي سطرتها بسرعة في كوخ ماروني دون ان يكون حولي سوى خمسة من الكتب او ستة » وفي ختام المقدمة الثانية ما خلاصته « واذا كان يجب على الكاتب ان يكون ميالاً للموضوع الذي يكتب فيه ليجد فيه بحسن في شرحه فان ذلك لا ينقصني . ولا اجهل انه يجب على الذي يتصدى لتاريخ دين من الاديان امران . الاول ان يكون قد آمن به اولاً والا فانه لا ينهم شيئاً من حماسه ولا يدرك ما فيه من مطعونات النفوس ومرضيات الضمير البشري . وثانياً ان يكون قد صار ممن لا يؤمنون به ايماناً مطلقاً من غير شرط ولا قيد لان الايمان المطلق لا ينطبق على العلم والتاريخ لما انه يوجب التسليم والعلم والتاريخ لا يعرفان تسليماً . ولكن الحب قد ينشأ في القلب من غير ايمان . واذا كان الانسان لا يعتقد . باشكال الامور التي تستوجب عند الناس العبادة والايمان فان ذلك لا يمنعه من

الاعجاب بما في تلك الامور من الخير والجمال . اما الالهية فانها لا تنفذ معها تكرر ظهورها لان الله قد ظهر قبل يسوع المسيح وسيظهر بعده . وظهوره سواء كان كبيراً او صغيراً فانه من طريق واحد وهو ارادته المودعة في الضمير البشري . فليس يسوع اذاً خاصاً بالذين يسمون انفسهم تلامذته ولكنه شرف عام للجميع اي لكل من له قلب انسان . وما عظمته ونجده ان يوضع خارج دائرة التاريخ ولكن ان يوضع في داخلها . وان اصح عبادة نقدم له هي اظهار ان التاريخ البشري غير مفهوم بدونه »

المقدمة الثالثة

وقد جعل المؤلف هذه المقدمة الثالثة تمهيداً للموضوع الكتاب فبحث فيها عن الحركة الدينية في العالم منذ انشائه . فقال ان التمدن القديم الذي نشأ في الصين وبابل ومصر قد رقى الاديان بعض الشيء فان الاديان في مصر وسوريا واشور والدين كانت تحتوي كثيراً من المبادئ الاديية ولكن الاوهام والخرافات كانت كثيرة فيها ولذلك لم يكن ممكناً ان يصدر عنها فكر عظيم . وكيف تصدر الآداب والحريية عن نسل ما فتى ذليلاً مستعبداً منذ وجوده

واما النسل الذي صدر عنه الايمان والحريية والنزاهة والاخلاص وتصورات النفس الغزالية فهو نسل هندو اوروبا والساميين . ويريد بالساميين جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من اللغات التي يسمونها سامية (العربية والسريانية والعبرانية والآرامية والكلدانية والاشورية والحمرية) . فمن هذين النسلين (هندو اوروبا والساميين) خرج تمدن العالم واديانه الراقية . اما هندو اوروبا فقد كانت ثمار عقولهم تصورات رقيقة وحناناً وعواطف جدية اي عواطف من الزم لوازم الآداب والدين . ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم الدينية القديمة . وانما خرج من الساميين الذين كان لهم في ذلك فضل عظيم على الانسانية فالذين اعدوا اذاً سبيل الدين للانسانية في العالم هم اولئك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته . وكان من اخص مزاياهم انكارهم على سوريا اديانها المادية المبنية على اللذة ثم بساطة العبادة لانهم لم يتخذوا هياكل ولا اصناماً . وكان في جملة قبائلهم قبيلة بني اسرائيل ولا يخفى ان هذه القبيلة كانت ذات صلوات قديمة بمصر وقد اقتبست من المصريين اشياء يعسر على التاريخ حصرها وذلك مما زاد في كراهتها للوثنية . فهذه القبيلة تم لها في ذلك الزمان الحصول على «توراة» اي شريعة مكتوبة على الواح حجرية وفيها مبادئ اديية حقيقية وجرائم المساواة الاحتمائية .

وكان لهذه القبيلة شيوخ ممتازون بالمعرفة والشعب يستشيرهم في المسائل المعضلة وكانوا يُدعون انبياء . اما كهنتهم فانهم كانوا يُشبهون الكهنة الذين تقدموهم ولا يمتازون عنهم الا بان الشؤن الكهنوتية عند كل واحد منهم كان مرجعها الى رايه . وكان الانبياء الذين تقدم ذكرهم من حفاظ المبادئ الديموقراطية القديمة التي كانت خاصة بالقبيلة ولذلك كانوا يكرهون كل تنظيم سياسي يُرام ادخاله الى بني اسرائيل لجلالهم كباقي الامم التي تليهم هذا فضلاً عن عدائهم للاغنياء . فهولاء الشيوخ كانوا السبب الاصيل في تقدم الشعب اليهودي في الدين على سائر الشعوب . ولكن لما هجمت السلطة الاشورية على ذلك الشعب وسحقته لاصغائه الى نصائح اولئك الشيوخ قام الشيوخ اصلاحاً لخطاهم ينادون بان مملكة يهوذا ستدوم الى الابد وان اورشليم ستكون عاصمة الدنيا كلها . ثم طرأت انقلابات كثيرة على الشعب اليهودي اخصها قيام الدول الكبرى في آسيا بعضها يتلو بعضها فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فصرفوا نظرهم عن الارض الى السماء وازدادوا تمسكاً بالشؤن الدينية . وقد صاروا حينئذ يرضخون لكل نير يوضع على اعناقهم على شرط ان يحترم وليّ امرهم عاداتهم ودينهم . ومنذ ذلك الحين لم يعد عدواً لهم الا كل من كان عدواً للاله الواحد ولم يعد لهم من وطن ولا شريعة غير الشريعة الدينية

ثم ظهر كتاب دانيال الذي هاج اشجانهم وزاد املهم في قرب قدوم المسيح المنتظر لانقاذهم من ضيقهم . فازدادوا تمسكاً بالشريعة الموسوية وصاروا يقتلون كل من يخالفها . وكلما كانت تُنقل عليهم يد الوثنيين الذين كانوا اولياء امرهم كانوا يزدادون انقطاعاً عن الارض وبوجهون انظارهم الى العالم الثاني . وكان العالم مشغولاً عنهم في ذلك الزمان بحوادثه الكثيرة فلم يلتفت الى ما كان يحدث عندهم . ولكن الامبراطورية الرومانية كانت حديثة النشأة اذ ذاك وقد قامت بعد حروب واسوال فكان الناس يتوقعون للعالم دوراً سلباً في عهدها . واما اليهود فانهم كانوا يتوقعون حينئذ بصبر فارغ قدوم « مسيا » المنتظر وكان كثيرون من مصالحهم يقضون الليالي والايام حول الهيكل صائمين مصليين وهم يسألون الله ان لا يتوفاهم قبل تحقيق آمال شعب اسرائيل . وكان الانتظار شديداً حتى ان كل واحد من الناس كان يشعر بقرب حدوث شيء عظيم »

ثم جاء المنتظر ورقي الدين الى درجة من الكمال والسمو لم يبلغها قبل ذلك

وسندخل في موضوع الكتاب في الجزء التالي